

مدلول المجال في المقاربات النظرية المفاهيمية: البحر الأبيض المتوسط أنموذجا

رمزي تاج - أستاذ مساعد - قسم الفرنسية - المعهد العالي للغات بقابس - تونس

ramzi.tej@yahoo.com

الملخص

تغيرت النظرة المقتضية للتاريخ مع أفول زمن سير الملوك وأخبارهم والمقتصر في جانب مهم منه على الوقائع المجتزئة منذ مطلع القرن العشرين، أين تجاوز المؤرخون والفلاسفة ما كان سائدا نحو أفق البحث التاريخي ومناهجه الجديدة الأمر الذي دفع إلى طرح تساؤلات مغايرة وإعادة النظر في حقائق تاريخية عديدة لإخراجها من نمطية الحدث السياسي والمجالات الضيقة إلى أفق بحث أرحب. وأخذت الكتابة التاريخية مع نهاية العشرية الثانية من القرن العشرين منها مناقضا لما كان متداولاً، وخاضت في الأبعاد السوسولوجية والسياسية والجغرافية والديمقراطية، لنشهد نقلة نوعية على مستوى الحدث التاريخي: أي من السياق التاريخي القصير إلى الأمد الطويل.

ورغم تعدد الدراسات التي خاضت في غالبية المسائل ذات الصلة بالحوض المتوسطي إلا أن جانب الغموض ظل قائماً، سواء المتعلق منه بالتسمية أو المرتبط بمفردات التخصيص والشمول عند تطرق المجتمعات البحرية إلى هذا المجال. والمنتبغ للسيرورة التاريخية للمتوسط يكاد يجزم باستحالة الحديث عنه من زاوية واحدة، فهو الحاضن لعدة من حضارات والجامع لمختلف الجنسيات واللهجات. ولا غرابة أن يبقى الحوض المتوسطي منذ النشأة وحتى وقتنا الزاهن مجالاً خصبا للبحث والتقصي لكل شغوف بالبحار، فهو مركز الحراك الاقتصادي والثقافي ونقطة العبور الأولى والجسر الواصل بين مختلف الأجناس والجنسيات والمجتمعات.

الكلمات المفتاحية

المتوسط - السيرورة التاريخية - التاريخ الجيوسياسي - الجغرافيا السياسية - التاريخ المقارن.

Abstract

The overview of history has changed since the decline of monarchs and their news for it was only restricted to retelling the repetitive facts of the early 20th century. Going beyond what was prevalent, historians and philosophers tried to set up for new historical methodologies, which led to the rise of thoughtful new research questions and the reconsideration of historical facts. They sought to transcend political affiliations and narrow fields of study to wider frontiers of research in History. As a result, the end of 1920s witnessed an approach which was at odds with the current situation and targeted the study of sociological, political, geographical and demographic dimensions. As such, there was a paradigm shift at the level of landmark events moving from a shorter historical context to a larger historical context in relation to the Mediterranean. Despite the abundant researches, much ambiguity remained unsolved concerning toponymy or vocabulary of allocation and inclusiveness when marine communities referred to this field.

A general perusal of the Mediterranean's historical process almost confirmed the impossibility of talking about it from a single perspective. Indeed, it has encompassed several civilizations and held several nationalities and dialects. From the outset until now, the Mediterranean has unsurprisingly been a rich and an important area of investigative research for all those passionate about the sea. It has always been the center of economic and cultural mobility. It has also been considered as the initial crossing point and served as a bridge for people of different racial backgrounds, nationalities and communities.

Keywords: The Mediterranean, Historical process, Geopolitical history, Geopolitics, Comparative history

المقدمة

يقتضي البحث في قضايا المجال الخوض في ثنايا مصنّفات المؤرخين والجغرافيين وعلماء الاجتماع، ومدونات المستطلعين والرحّالة في محاولة تتبّع المسار التاريخي لهذه المسائل التي ظلّت عصيّة الفهم واستحال في مناسبات عدّة الإلمام بشتّى جوانبها. ودفع هذا الأمر إلى طرحها لاستبطن بعض خفاياها عبر استعراض ما دونّ في هذا الغرض من دراسات وبحوث ألمّت في جانب منها بعدد من الموضوعات، من قبيل الصّراع على تملّك الحيّز البحري على عدوتي البحر الأبيض المتوسطّ.

ويبقى أنّ الكثير من الأطروحات لامست النزر الأكبر من المسائل التي لاقت حظّها وخاصّة فيما يعنى بالجوانب النظريّة، بيد أنّ الغاية من استعراضها لا يعدو أن يكون سوى مجرد تصفّح لما حوته قصد إعادة النّظر في بعض الجوانب التي لّفها الغموض لتجاوز النّظرة الشّمولية للمجال، والاقْتصار على أمثلة محدّدة لتوجيه البحث نحو مسائل أعمق وإثارة أكبر جزء ممكن منها.

وعديدة هي البحوث والدرّاسات التي تناولت بالدراسة البحر الأبيض المتوسطّ، ولا نجانب الصواب إن قلنا أنّ الباحث في هذا المجال من العسير عليه إيجاد منفذ جديد للخوض فيه نظرا إلى الكمّ الهائل من المصنّفات التي أولته وافر الاهتمام. ومن أبرز الدّراسات ذات الصلة بالمجال المتوسّطي تلك التي خلّفها رائد الكتابة التاريخيّة المتوسّطية (فرنان بروديل) "Fernand Braudel" في مصنّفته " La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II (1558-1598), Paris, A. Colin, 2 volumes. الذي قام بجرد كامل لهذا المجال السائل منذ النّصف الثّاني من القرن السادس عشر حتّى أواخر القرن ذاته للوقوف على أهمّ مميّزات المجتمعات البحريّة القاطنة على ضفافه خلال فترة حكم "فيليب الثاني".

وقمنا في السياق ذاته بتصفّح عديد الكتب الأخرى في المجال نفسه، بيد أنّ طبيعة البحث أجبرتنا على الخوض في بعض الجوانب التي ظلّت على الدوام محلّ غموض، ولم تلق حظّها من التّمحيص والتّدقيق من قبيل المسائل النّظريّة ذات الصّلة بالمتوسّط خاصّة منها التي تزامنت مع مدرسة الحوليّات. ومن أهمّ الدّراسات في هذا الاتّجاه نسوق ما يعود إلى رواد الحوليّات (لوسيان فافير) "Lucien Febvre" وخاصّة (مارك بلوك) "Marc Bloch" في مقاله حول التّاريخ المقارن الصادر سنة ١٩٣٩ بعنوان "Problèmes d'histoire comparée".

ومن الدّراسات التي اعتمدها أيضا في دراستنا للمجال المتوسّطي تلك المتعلّقة أساسا بالتّاريخ الجيوسياسي أو ما يعرف بالجغرافيا السياسيّة، وتبقى كتابات "قوتمان" (Gottmann, 1949, P 10) من أبرزها والتي خاضت في المسائل الخلافيّة المتعلّقة بالموقع الإستراتيجي للبحر الأبيض المتوسّط، والشّيء نفسه ينطبق على كتابات "يف" (Yves, 1942, P 351).

مشكلة البحث

استوجبت الظرفيّة التي حامت حول الحوض المتوسّطيّ مزيد العناية به وتدقيق عدد من المسائل التي ظلّت حتّى الماضي القريب بحاجة إلى مزيد البحث والتّدقيق، ما دفع إلى طرح الإشكالات النّظريّة قصد الخوض فيما خلفه رواد هذه المدارس من أطاريح، وإيلاء مسائل الحراك التوسّعي جانبا من الأهميّة من خلال تصفّح مدوّنات المؤرّخين ومصنّفاتهم لملامسة جذور الصّراعات والنّزاعات التي كان المتوسّط محورها.

ووفقا لما أتينا على ذكره من دراسات نظريّة سابقة ارتأينا طرح النّساؤلات التّالية:

١. ماهي أهمّ المدارس النّظريّة التي تناولت بالبحث المجال "السائل"؟

٢. إلى أيّ مدى استطاع المؤرّخون والجغرافيون الخوض في مسألة التّوبونوميّة المتوسّطيّة؟

٣. ماهي أسباب الخلاف الطارئ بين المختصين حول مسألة الأهمية الإستراتيجية للبحر الأبيض

المتوسط؟

٤. هل يمكن استجلاء أسباب التوسع الاستعماريّ وغاياته من خلال الخوض في المصنّفات

التاريخية والدراسات الجيوسياسية واعتماد المنهج المقارن؟

أهمية البحث

تكمن أهمية البحث في:

١. طرح بعض المسائل المتعلقة بالحوض المتوسطي التي ظلت على الدوام محلّ جدال لمزيد

الخوض فيها وتحديد النقاط الخلافية ومحاولة إيجاد زوايا اتفاق جامعة بين مختلف الاختصاصات.

٢. الخروج بالبحث من نمطية الدراسات الاجترارية إلى البحث والتقصي عبر توكّي المنهج

المقارن.

٣. فتح مسارات بحث جديدة غير تلك التي ألفناها والخاصة بالسير وأخبار الساسة والأعيان.

أهداف البحث

يهدف هذا البحث من خلال طرح المقاربات النظرية المفاهيمية المتعلقة بالمتوسط إلى:

١. إماطة اللثام عن جملة من المسائل، منها ما أشبع بحثا ومنها الذي لا يزال يبحث عن دراسات

تفيها حقها، خاصة المتعلقة بالجدال بين المختصين في مناهج الكتابة التاريخية.

٢. تقديم صورة أوضح عن الدور الذي حظي به المتوسط في جميع الكتابات، سواء التاريخية أو

الجغرافية أو السياسية.

٣. تفحص أهمّ الأسماء التي وسمت البحر الأبيض المتوسط منذ النشأة وأسباب الخلاف وعدم

الاتفاق حول تسمية جامعة بين مختلف المجتمعات البحرية.

منهج البحث وإجراءاته

يتوجب على الباحث الذي يرنو إلى إنجاز دراسة علمية تاريخية اتباع جملة من الخطوات الواجب حضورها صلب أي بحث والقائمة على توظيف منهج أو أكثر وفق مقتضيات الدراسة، مع مراعاة التّكامل المنهجي. واتبّعنا إستنادا إلى ذلك على المناهج الآتي ذكرها:

١. **المنهج التاريخي:** يمكن من دراسة البعد التاريخي الذي زامن حراك البحر الأبيض المتوسط ومتغيّراته منذ ثلاثينيات القرن العشرين حتّى فترات متقدّمة من تاريخنا المعاصر، وكلّ ذلك من خلال تصفّح الدّراسات النّظرية على اختلافها، بدءا بالتاريخي ومرورا بالجغرافية - السياسية حتّى بلوغ الدّراسات المقارنة.

٢. **المنهج الوصفي:** عزّجنا من خلاله على الجوانب التي جعلت من هذا المجال محور اهتمام الرحالة والتّجار والقوى الأوروبية الطامحة إلى السّيطرة عليه.

٣. **المنهج المقارن:** هو منهج حديث وفرع من فروع التاريخ الذي يخوّل للباحث إقامة ضرب من المقارنة بين المجال محور بحثه وبين مجالات أخرى ضمن السياق ذاته قصد الوقوف على أوجه الشّبه والاختلاف بينهما.

المبحث الأول: البحر الأبيض المتوسط في الدّراسات النّظرية: "فرنان بروديل" أنموذجا

يعتبر (فرنان بروديل) "Fernand Braudel" رائد الكتابة التاريخية الحديثة وواضع دعائم التاريخ الجديد القائم على انتفاء الحدود بين التاريخ وسائر العلوم الأخرى، والمبني على دراسة البنى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ضمن دائرة الأمد الطويل (Braudel, 1969, P 54)، لتكون القطيعة الابستيمولوجية

مع السياقات التاريخية "التقليدية" والدعوة إلى طرح "تاريخ إشكالي" بعيد كل البعد عن المناخ الكلاسيكي بهدف استجلاء الدفين صلب الظاهرة التاريخية بشكل أكثر دقة وشمولا.

وجاءت نظرية "بروديل" القائلة بحتمية اضمحلال الحواجز القائمة بين مختلف العلوم الاجتماعية والتاريخ على أنقاض المواجهات السابقة التي عدّها البعض مبحثا متواترا غير ميدان العلوم الإنسانية جذريا، ويعود تاريخ المواجهة الأولى إلى سنة ١٩٠٣ حيث تبنّاها علماء الاجتماع من خلال الكتابات التي خلفها (فرنسوا سيميون) "François simiand"، لنشهد أطوار المواجهة الثانية سنة ١٩٢٩ وخاض فيها المؤرخين (لوسيان فافر) "Lucien Febvre" و(مارك بلوك) "Marc Bloch" (Doss, 1986, P 83) غير أنّ معركة الحدود ظلّت قائمة رغم ما أثير حولها من حوارات ودراسات، لتأخذ عقب الحرب منعرجا آخر على يد الأنثروبولوجي الفرنسي (كلود ليفيس شتراوس) "Cl. Levi - Strauss" قبل أن تعود إلى التّضارب من جديد مع مختصّي التاريخ (Doss, 1986, P 83).

وبرزت مدرسة الحوليات في ثلاثينيات القرن العشرين على محك الحوار النظري والاحتكاك المنهجي بين مختلف المدارس التاريخية، محدثة صدعا على مستوى نوعيّة البحث التاريخي وأساليبه ومفرزة نمطا جديدا من أنماط الكتابة التاريخية على أنقاض ما سبق أبعد ما يكون عن السرد المنمق ونقل الأحداث دون استقصاء، بل بالسعي إلى الحثّ على إيجاد السبيل الكفيلة لتجاوز ركود المناهج السابقة ومخلفاتها وتوحي أساليب تقوم أساسا على انتقاء الأحداث التاريخية مكامن التوتّر ونقط التوافق.

وشكّلت كتابات "فرنان بروديل" في السياق ذاته مع نهاية النّصف الأوّل من القرن العشرين المحطّة النّواة في المسار الإسطوغرافي صلب مدرسة الحوليات تزامنا مع فترة ما بعد الحرب العالميّة الثانية بدراسة التاريخ انطلاقا من تعدّد الأزمنة لإدراك التاريخ إستنادا إلى ما يسمّى بـ "الأمّد الطويل" (Lepetit,)

(1986, P 1187).

وعدّ هذا التّيار الإسطوغرافي الذي بعث منذ السّنوات الأخيرة من القرن التّاسع عشر من نتائج الحوار الذي نشأ بين التّاريخ وسائر العلوم الأخرى كالجغرافيا وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد، ويرجع الفضل في ذلك إلى الفيلسوف الفرنسيّ (هنري بير) "Henri Berr" الذي وصفه "بروديل" بقوله "هذا الرّجل هو إلى حدّ ما الحوليّات قبل ظهورها، منذ سنة ١٩٠٠، وريّما قبل ذلك، منذ سنة ١٨٩٨، إليه يجب الرّجوع إذا أردنا أن نعرف كيف بدأ كلّ شيء" (بروديل، د.ت). ويذكر "لوسيان فافر" ضمن الإطار نفسه أنّ "هنري بير" كانت له إسهامات كبيرة في تطوير الكتابة التّاريخيّة من خلال "مجلة التّركيب التّاريخي" التي أنشأها سنة ١٩٠٠ والمنادية بضرورة إيجاد فهم عميق للواقع الاجتماعيّ، وهي في التّهاية حسب رأيه أساس تشكّل المنهج التّاريخيّ الجديد أو بالأحرى مدرسة الحوليّات (Febvre, 1953, P 340-341). ومزّت مدرسة الحوليّات بتحدّيات عدّة وانتقادات شتّى منذ نشأتها سنة ١٩٢٩ حتّى أواخر سبعينيّات القرن العشرين إبّان الاحتفال بالذّكرى الخمسين لتأسيسها سنة ١٩٧٩، وظلّت المفاهيم المنادية بها رغم المقاربات التي تبنتها والمسار الذي انتهجته غامضة، ما جعل التّاريخ والمؤرّخ على حدّ سواء في مواجهة التّحدّيات ذاتها التي وسمت سيرورة التّوجّه الجديد للمدرسة القائم على تبنيّ المنهج النقديّ للأحداث، ذلك أنّ التّاريخ الذي تنادي به مدرسة الحوليّات مبني على طرح التّساؤلات المحرّجة المخالفة لما هو اعتياديّ والمؤرّخ والقائم على التّبليغ والمنتج للمعقول والمدرّك بالعقل لا بالحواس، والذي اصطلح على تسميته "بالتّاريخ الإيديولوجي" (Les Annales, 1979, P 1344) باعتبار الذّكرة في حدّ ذاتها تحثّ على العمل النقديّ إذ التّاريخ دورة لا تتوقّف من الأحداث، بدءا بما وقع في الماضي وصولا إلى ما هو معاش في الحاضر، فهو كبقية العلوم الاجتماعيّة الأخرى بعيد عن محاكاة الواقع ويدعو إلى البناء العقليّ النقديّ والتّساؤل عن جدوى المفاهيم القائمة والفرضيّات المنتهجة، وهو المسار ذاته الذي انتهجه "فرنان بروديل" (Les Annales, 1979, P 1345).

ويقول (أ. لو روي لادوري) "E. Le Roy Ladurie" في سياق حديثه عن مدرسة الحوليات كونها مدرسة تمثل صورة المجتمعات التي تدرسها ضمن إطار خطاب "جمعي" غير قابل للترويض أو الحصر والذي يصعب تقديم تفسير لمفهومه (Doss, 1985, P 47-48).

وأخذت مدرسة الحوليات مسلكا مغايرا عقب الحرب العالمية الثانية بالقطع مع "التاريخانية" التي تعنى بدراسة الأحداث في علاقة بالأوضاع التاريخية، وهي نظرية تذهب إلى أن كل حقيقة تتطور مع التاريخ لتقر بالنسبية التاريخية، وهو ما قطعت معه مدرسة الحوليات مع "مارك بلوك" و"لوسيان فافر" اللذان يرفضان النظرية التي تقر بجمود التاريخ (Doss, 1985, P 48) رغم الضبابية التي وسمت أواخر أربعينيات القرن العشرين، أين صنّف المؤرخون المجتمع الأوروبي "بالبارد" (Doss, 1985, P 51) نتيجة مخلفات الحرب العالمية الثانية، وهي من أكبر التحديات التي واجهت مدرسة الحوليات الأمر الذي جعلها تراوح في توجهاتها بين ما هو قائم وبين إلزامية التطور تامشيا مع مقتضيات الظروف الزمانية والمكانية.

وكان لـ "فرنان بروديل" في خضم هذا الحوار المنهجي السبق في إيلاء ثنائية المجال والإنسان – أو التي اصطلح على تسميتها بالجيو- تاريخ (Chatelain, 1953, P 152-153) – العناية التي تعوزها بعد عزوف عدد من المؤرخين ممن سبقوه في تناولها بالبحث، وذلك ضمن المدرسة ذاتها التي عدّ أحد روادها والتي ابتكرت طرقا جديدة بغية توسعة رقعة الخطاب التاريخي مكانيا انطلاقا من عديد الأمثلة لعلّ البحر الأبيض المتوسط أهمها، حيث نال نصيبه من البحث والتّحريض في كتاباته ودراساته من خلال البحث في مكامن الخلل والتاريخ الجزئي الذي يعنى بكلّ ما له صلة بهذا المجال.

ولا تخلو كتاباته من الحديث عن المجال الذي ما انفك يتطرق إليه بإطناب قصد التأكيد على وجود خيط ناظم بينه وبين التاريخ الذي يعدّ أحد مختصيه، ونلمس ذلك من خلال اعتماده المستمر على المصادر الجغرافية ما يعكس توجهاته ضمنيا. ونذكر من الجغرافيين الذين ضمّنهم في أعماله (فيدال دو

لا بلاش) "Vidal de la Blache" و(أ. دومنجون) "A. Demangeon". ونلاحظ موازاة مع ذلك غيابا تامًا لذكر مؤطريه في المجال الجغرافي مثل (أندريه مينيي) "André Mynier" و(لويس بابي) "Louis Papy" (Péguy, 1986, P 77).

وخصّص "بروديل" في مصنّفه الموسوم "المتوسّط والعالم المتوسّطيّ في عهد فيليب الثاني (١٥٥٨ – ١٥٩٨)" جانبًا من أولوياته لدراسة المجال لبيان ظاهرة صراع الإنسان مع الطبيعة والمجال الجغرافي بغاية معالجة الإشكالات التاريخيّة ضمن حيّز جغرافيّ محدّد، وبالتالي ضمن سياق ما اصطلح على نعتّه "بالجيوتاريخ" (Bataillon, 1950, P 233) الذي يتطابق في مفهومه مع التّاريخ "الجيوسياسي" (Barkan, 1954, P 190).

واستهلّ بحثه في المجال المتوسّطيّ بالعودة إلى النّصف الثاني من القرن السّادس عشر لبيان انعدام الصّلة بين تاريخ المدن المتوسّطيّة و"التّاريخ العام النّقليدي"، كما عمد إلى إلغاء الحدود السّياسيّة وخصوصا الدينيّة والثّقافيّة لإزالة الحواجز الفاصلة بين الشّعوب والمجتمعات القاطنة على ضفاف الحوض المتوسّطيّ لتتقاسم الهموم الاقتصاديّة والاجتماعيّة نفسها، وتخضع إلى الالتزامات والقوانين ذاتها (Barkan, 1954, P 189).

وحظي المجال مع "بروديل" بالمكانة التي كان يرنو إليها، فعلى امتداد نصف قرن من مسيرته في خضمّ البحث والاستقصاء في خفايا البحر الأبيض المتوسّط بجميع تفرّعاته جذّرت التّحليل المهنّمة بالمكان التي توخّأها والسّابقة لكتابات "لوسيان فافر" حول الأرض والتّطوّر الإنسانيّ بحوالي عقدين من الزّمن الحوارات القديمة الخاصّة بالمجال في المقام الأوّل والاقتصاد الأوروبيّ بدرجة أقلّ، والتي تعتبر ميادين بحث بحاجة إلى إعادة الكتابة من قبل المؤرّخ (Lepetit, 1986, P 1187).

وإصطفَ "بروديل" في حوار المنهجية إلى جانب النظرية التي تعترف بالتطابق بين المجال والسفر عبر الماضي، فخلف كل التاريخ الإنساني نجد ذلك العامل المتغير المسمى بالمجال الجغرافي وهو ما أكده من خلال تقسيمه الثلاثي للأزمنة، أولها الزمن القصير المخصص للفرد والحدث، وثانيها الأمد الطويل الذي يعنى بالمجموعات والتجمعات والاقتصادات والحضارات، وثالثها الزمن شبه الثابت لتمثل مجتمعة علاقة الإنسان بالمجال المحيط به (Lepetit, 1986, P 1188-1189).

ويمكن الجزم أنّ "بروديل" تعرّض ضمن أغلب مصنّفاته التي خاضت في خفايا الحوض المتوسطي إلى الأهمية التي يشكّلها هذا المجال الذي غالبا ما طرح عدّة إشكالات، خاصّة تلك المتعلقة بالصرعات التي حولته إلى حلبة اشتباك تضاربت فيها مصالح القوى المتنازعة ممّا أفضى حسب طرح عدد من المؤرخين إلى أفول دوره وتقلص حضوره في الميدان التجاري على وجه التخصيص (Paul, 2006).

وظلّ "بروديل" وفيما لنظرية الانفتاح المتوسطي رغم ما قيل في هذا الشأن ورافضا لمبدأ الانغلاق الذي أقرّه السابِقون من الرحالة والمستطلعين والمؤرخين، وناقيا ما روج من تصريحات مفادها عزلة هذا المجال الذي بقي - رغم ما حاف به - بحر التجارة بامتياز وبحر الانفتاح على مختلف الحضارات والمجتمعات البحرية من المحيط الأطلسي غربا حتّى البحر الأسود شمالا (Braudel, 1998). وهو يعتبر المجال السائل عموما والبحر الأبيض المتوسط تحديدا نموذجا للسيطرة الأحادية الرافضة لمنطق المشاركة، الأمر الذي نلمسه من خلال قوله "إنّ المتحكّم في البحر يكون دوما هو المتحكّم في الثروة وأنّ البحر لا يقبل إلا سيّدا واحدا" (بروديل، ١٩٩٠).

المبحث الثاني: البحر الأبيض المتوسط في المصنّفات التاريخية والدراسات الجغرافية

بقي الأمر على ما هو عليه من جدل حتى الحضور العثمانيّ وبداية سطوة الدويلات الأوروبية مع (شارل الخامس عشر) "Charles Quint" و(فرنسوا الأول) "François I^{er}", لترتسم حدود الخط الفاصل بين الشمال والجنوب عند المرور بمالطة وقبرص، ليأخذ في الامتداد مع الإيطاليين والكاتالونيين والإغريق بعيدا عن الحدود المرسومة له سلفا (Barreau, Bijot, 2007)، وكأنّ الهوية المتوسّطيّة كتب لها أن تتبلور بالتوازي مع مفهوم التشتت الذي وسمه.

وأكدت أطروحات القرن السادس عشر أن صفة المتوسّط تعكس الشّيء الذي يتوسّط الأرض ليمتقع في القرن الثامن عشر في الزّمان والمكان، ويشكّل محور اهتمام الرجل الغربيّ (Ruel, 1991, P 7-8) الذي أيقن الأهميّة التي يحتلّها هذا المجال لتوسّطه قارات ثلاث زادت من حراكه التجاريّ وإستراتيجيّته العسكريّة في ظرف شهد تطوّر القوى الأوروبية وأساطيلها لمواجهة الزحف البحري، ولحماية السّواحل ومراقبتها بعد أن باتت عرضة لعديد الانتهاكات خاصّة من لدن الخصوم العرب شماليّ المتوسّط الذين كانوا في أوج قوّتهم البحريّة بعد التّطوّر الذي شهدته نشاط القرصنة (السنوسي، ١٩٩٠، ص ٨٦-٨٧).

ويعتبر الجغرافيّ (إليزي راكلو) "Elisée Reclus" أوّل من خصّ المجال المتوسّطيّ بدراسة مستقلّة بذاتها، لينتقل إثر ذلك من تعريفه "الجيوفيزيائيّ" الضيق الذي يعنى بدراسة الخصائص الفيزيائيّة المتّصلة بالطبقات الموجودة تحت سطح الأرض لمعرفة مكامن الاختلاف فيما بينها إلى اعتباره مجالا تاريخيا واقتصاديا وثقافيا فهو مصدر التّجارة الأوروبية بامتياز، ليشكّل البحر الواصل بين القارات الثلاث الأوروبية والآسيويّة والإفريقيّة، أي بين الآريين والسّاميين والبربر (Reclus, 1876).

وظلّ التعريف الخاصّ بالمتوسّط محلّ نظر العديد من المختصّين والعارفين بخفايا هذا المجال الذي استحال في مناسبات عدّة تحديد مفهوم دقيق له يقطع مع الجدل الذي حام حوله. ويرجع عدد من

الجغرافيين بداية ظهور التسمية إلى القرن الثامن عشر بعد تداول تسميات تحيل في مضمونها على الخصوصية والمجال الضيق كعبارة "بحرنا" التي اعتمدها الرومان منذ القدم، أو "بحر الروم" أو "البحر الشامي" عند العرب الأوائل أو "أكنديز" أي البحر الأبيض وفق التسمية التركية. وهو في التعريف الشامل والمتداول خلال الحقبة نفسها "بحر محاط بالأراضي أو بحر وسط الأراضي" (Barreau, 2007) إستنادا إلى ما قدّمه الجغرافيون (Chastagnaret, 1991, P 3).

وتناولت عدّة من دراسات المجال المتوسطي بالبحث لتحديد مفهومه الاصطلاحيّ بعد الاختلاف الذي ساد منذ أن أطلق عليه (إيزيدور دو سيفي) "Isidore De Séville" لقب المتوسط (Matvejevitch, 2005)، ويتماهي تحديد المعنى مع المجال الصلب تبعا إلى التعريفات الواردة في معاجم الجغرافيا لتوسطه اليابسة حتى نعت "بالأرض الوسطى" أو "أرض الوسط" (Picon, 2002, P 3-4).

وجاءت الأحرف المكوّنة لتسمية هذا المجال "Médier" وفق ما حدّده علم "الايتمولوجيا Etymologie" - أي علم الاشتقاق اللغوي - لتؤدّي معنى التأمّل والثروي ليكون المتوسط في النهاية مجالا للتبصر وحيزا للتلاقي بين مختلف الثقافات والحضارات اليونانية والمسيحية واليهودية والإسلامية (Picon, 2002, P 4). وقدّمت عديد الدراسات والبحوث تعريفات مختلفة للمجال والمدن المتوسطية قصد بلوغ إطار يجمع بين كلّ تلك المتناقضات التي طالما كانت محلّ نظر أولي الأمر من أهل الاختصاص إلا أنّ السبيل للخروج من دائرة التساؤل الذي ظلّ يحوم حول المفهوم والمعنى ينحصر في المقام الأوّل في معيارين أساسيين هما المعيار الجغرافيّ والإستراتيجيّ (محمد، ١٩٩١).

وبحكم الطبيعة الجغرافية للبحر الأبيض المتوسط فإنّه يكاد يكون بحرا مغلقا على ذاته لولا وجود منفذين رئيسيين هما مضيق جبل طارق غربا الذي يصله بالمحيط الأطلسي، وقناة السويس شرقا التي تشكّل منفذا إلى البحر الأحمر الذي يتّصل بدوره عند مضيق باب المندب بالمحيط الهندي (كاتب،

٢٠٠٧). كما ينقسم البحر الأبيض المتوسط إلى حوضين - غربي وشرقي - بفعل الخناق الموجود بين جزيرة صقلية وتونس. وميّزت الخصائص المذكورة المدن القاطنة والمحاذية للمتوسط وعلاقتها عبر حقبات مختلفة راوحت بين العلاقات السلمية - العدائية طورا، وبين الرواج التجاري والكساد الاقتصادي طورا آخر.

وإذا لفّ الغموض العوامل التوبونومية والإيتومولوجية فإنّ هناك توافق حول المعيار الجغرافي الذي حدّد تصنيف المدن المتوسطية بتلك المطلّة على البحر أو المالكة لمنفذ أو شريان يصلها بالمتوسط، بيد أنّ المعيار الإستراتيجي جعل الحوض المتوسطي يتجاوز تلك الحدود الجغرافية ليشمل مناطق أخرى تدخل ضمن نطاقه السياسي والإستراتيجي (Hanni, 2002).

وظلّ العجز عن تحديد مفهوم موحد للمتوسط مطروحا حتّى بداية القرن العشرين عندما خاض بعض الجغرافيين كالفرنسيين (فيدال دو لا بلاش) و(كاميل فالو) "Camille Vallaux" في مسألة تحديد مفهوم المجال المتوسطي لحسم القضية بشكل نهائيّ مخصّصين النّصيب الأكبر من دراساتهم في هذا الاتجاه، إلى جانب البريطانيّ (هالفورد ماكيندر) "Halford Machinder" والألمانيّ (فريدريك راتزل) "Frédéric Ratzel" اللذان تناولا بعمق الإشكال نفسه (Gottmann, 1949, P 10) ليخلصوا إلى استنتاج مفاده أنّ البحر هو "العامل الأكبر للثروة والحضارة والقوّة، ومن أمكنه ترويضه يحظى بمراقبة سواحله ومناطقه الحيوية" دون الخروج في النهاية بتعريف لجوهر المتوسط وإنّما أثاروا مسألة دوره "الجيو - إستراتيجي" (Gottmann, 1949, P 11).

ورواح البحر الأبيض المتوسط في السياق ذاته المتعلّق بالتسمية بين ثنائية التخصيص والشمول أي مفهومي "الجزئي" و"الشامل" بين ضفتيه الغربية والشرقية، فخلاف ما نجده لدى الإغريق والرومان ومن تلاهم من بني جنسهم من شمول في حديثهم عن المجال البحري المتوسطي بوصفه ملكا خاصا يعود

بالنظر إلى سيادتهم وبخضع إلى سلطتهم، كان العرب الأوائل ومن لفّ لفهم يميلون إلى التخصيص عند ذكرهم المتوسط إمّا لاقترانه بالمدن المحاذية والشعوب المحيطة به أو للتمييز بينه وبين بقية البحار الأخرى (Matvejeveitch, 2005).

ويخرج المتصفح لما خلفه الأوائل من مصنفات تناولت بالبحث جذور "التوبونومية" المتوسطية بعيد الاستنتاجات فحواها قصور كلّ ما دون حول هذا المجال بخصوص محاولة تحديد تسمية تحظى بالإجماع لدى المؤرخين والجغرافيين على حدّ سواء، فلا المختصّ التاريخي استطاع وضع مفهوم يلقي القبول والدعم مثل كتابات (هيرودوت) "Hérodote" و(سيسيرون) "Cicéron" (Paul, 2006)، ولا الجغرافيون الذين تلهم أمثال (بول فاليري) "Paul Valéry" (Charpentier, 1992) تمكّنوا من الفصل في هذه المسألة التي كانت ولا تزال تثير الجدل كلّما طرحت على بساط البحث.

ولفّ الغموض عديد الجزئيات المتعلقة بالمتوسط سواء كانت ذات صلة بالتوبونومية (علم الأماكن) أو الإيتيمولوجية (علم الاشتقاق)، لينسحب الأمر ذاته على الموقع الذي اختلف الجغرافيون في تحديده حيث أنّ السواد الأعظم منهم يرفضون التقسيم التقليدي للمتوسط الذي يفصل بين عدوتيه الغربية والشرقية، أين يقع الحوض الرابط بين تونس وصقلية ويقرون بوجود أحواض ثلاث تكوّن هذا المجال الشاسع الممتدّ على مساحة تناهز ٢,٥٠١,٤٥٢ كم^٢ (Carre, 1997, P 52)، أولهما يقع غربا (بين الحوض الممتدّ من فرنسا حتّى سواحل الجزائر وبين البحر التيريني من كورسيكا وسردينيا غربا حتّى صقلية جنوبا)، وثانيهما مستقرّ عند المنتصف (بين البحر الأدرياتيكي والإيوني)، وآخرها شرقا (بين حوض المشرق والبحر الإيجي) (Carre, 1997, P 52).

ولا يقصي هذا التناقض الذي خيم على تاريخ البحر الأبيض المتوسط منذ القدم إلى الماضي القريب وحدة هذا المجال رغم سمات الصّراع والنّزاع اللّتان غلبتا على مجمل فتراته التاريخية (Amine,

(Yachir, 1988)، ولذلك يمكن اعتبار هذا التنوع من مميزات البحر الأبيض المتوسط التي تنعدم مع بقية البحار والمحيطات الأخرى.

المبحث الثالث: المجال المتوسطي والحراك الجيوسياسي

شكل البحر الأبيض المتوسط منذ القدم منبع التنوع الحضاري لمختلف الأمم والمجتمعات البحرية القاطنة على سواحلها، والتي اتسم حضورها بطابع نزاعي - صراعي طورا وطابع سلمي مبادلاتي طورا آخر الأمر الذي حول المتوسط إلى رهان إستراتيجي نظرا لمميزاته البحرية المهمة، فهو رمز الحركة الدائمة بحكم موقعه في نقاط تقاطع قارات ثلاث: الإفريقية والأوروبية والآسيوية ونقطة وصل بين المحيطين الأطلسي والهندي، فهو ليس كبقية البحار الأخرى لأنه "بحر تزدهم فيه الجزر وتنتشر فيه أشباه الجزر، تحيط به شواطئ مستننة... إته بحر محاصر بالأراضي، وبالتالي فإن جيوسياسة البحر المتوسط هي أولا جيوسياسة المجال والأراضي الذي تحيط به" (عبد اللطيف، ١٩٩٦، ص ٢٥٠).

ويعتبر التاريخ شاهدا على الأهمية الجيوسياسية للمتوسط إذ شكل منذ القدم منطقة تقاطع واتصال بين فضاءات جغرافية وشعوب مختلفة، بيد أنه كان على الدوام محل صراع وتنازع (Rieutard, La Spierre, SD). ووصف الجغرافي "إيف لاکوست" منطقة المتوسط بكونها "منطقة تشكل مجموعة جيوسياسية صراعية" (Yves, 2006).

وخلقت دراسات المؤرخين والجغرافيين وبحوثهم من الشواهد ما يؤرخ لمحن البحر الأبيض المتوسط التي دونت سيرورة وسمها الصراع والتناحر منذ فترات موعلة في القدم حتى الماضي القريب من الحقبة المعاصرة (Panzac, 1999, P 30). وكان مدار هذا الصراع وحراكه متمحورا حول الأنشطة البحرية والمسالك التجارية بين عالمين كانا على الدوام على طرفي نقيض، وهما العالم الإسلامي والعالم المسيحي وهو حوار طغي على أغلب حقبات تاريخ البحر الأبيض المتوسط منذ النصف الثاني من القرن السابع

عشر إلى أواخر ستينيات القرن العشرين (Chevallier, 1832)، والذي صنّفه الفلاسفة مثل "كانط" و"كارل ماركس" و"آرنولد توينبي" بهاجس الدفاع عن الهيبة الأوروبية القائم على مبدأ الحكم الأحاديّ لصفوة المجتمعات البحريّة الطامحة إلى فرض سلطانها على هذا المجال إستنادا إلى مقومات القوة الملاحية التي أفضت إلى مزيد التوتّر والتصدّع والاختلاف بين جلّ القوى المتنازعة (غنيمي، ١٩٨٨).

ولازمت سمنا التوتّر والنزاع مسار التاريخ المتوسطي - رغم المفاهيم التي يدعو إليها والمعاني التي يتضمّنها - منذ العشريّة الثانية من القرن العشرين إلى النصف الثاني منه، وذلك نتاج دواع إستراتيجية فرضتها أسباب متعدّدة رسمت سيرورته خلال الحقبة المعاصرة منذ اندلاع الحرب الكبرى حتّى سنوات الستينيات أين ظلّ مراوحا بين ثنائيّة الطموح السياديّ ووجوب التسيّد في ظرف تسارعت فيه الأحداث بشكل جعلت مسائل المجال مدار الحراك التوسعيّ الأوروبي (Verost, 1982, P 10) وفق إستراتيجية التفوّق الملاحيّ التي وسمت الرؤى الغربية الطامحة إلى الفصل في قضية السيطرة الملاحية خلال فترات سادها التناقض.

وبات البحث في قضايا المجال والصراع الإستراتيجيّ أكثر من ملحّ قصد عدم إلحاق الضيم بالمسألة وتجنّب مقارنتها بالزاهن العارض والجغرافيّ المحدود، حيث يعدّ من الحيف تبرير عدم الخوض في قضايا المجال بأسباب واهية قد يسوقها البعض لأيّ تعلّة كانت، ذلك أنّ الحيّز الزمنيّ الذي طرحت فيه المسألة يقتضي الخوض في كلّ حيثيات النزاع وأطواره باعتباره الحدّ الفاصل بين فقدان الإيالات المغاربية لمقاليد السيطرة الملاحية إثر التشتت الذي لحق مجال القرصنة البحرية أواخر القرن التاسع عشر واسترجاع الأطراف الأوروبية مقاليد الريادة في الحوض المتوسطيّ (Manlau, 1964).

وأصبح المتوسطّ أمام الوظيفة الإيديولوجية التي اصطبغ بها مجالا للصراع بين الشرق والغرب خلال الحقبة الاستعماريّة، ليذمّج مع نشأة التعريف الجغرافيّ الحديث في الصراع الإيديولوجيّ للقرن

التاسع عشر ويتحوّل إلى مصطلح متعدّد المعاني ويفرز قراءات واستعمالات متنوّعة (Ruel, 1991, P 10-11). ويقول "بول فاليري" حول المتوسطّ ونشأته أنّه من الصّعب في مجال ضيقّ وحيز زمنيّ مختصر أن نلاحظ تكوّنًا للفكر وإنتاجًا للثروة، ولأجل ذلك فرضت فكرة دراسة المتوسطّ كمجال "الصنع الحضارة" (Valery, 1951)، كما أنّه مجال إستراتيجيّ في المقام الأوّل ومنطقة خطر عليا في الآن نفسه، وهو في وقتنا الرّاهن "مسرح الإستراتيجيّات غير المباشرة للانتصارات دون حرب" (Vernochet,) (Nigoul, 1987, P 736).

وانقاد البحر الأبيض المتوسطّ تحت وطأة المتغيّرات الدّوليّة إلى عدّة تحويرات فرضتها الظرفيّة الحرجة التي ألمّت به بعد احتدام التّنافس الملاحيّ الأوروبيّ من أجل بلوغ مراتب السيادة. وأسفرت الغايات التّوسّعيّة التي حاكت تاريخ المتوسطّ زهاء نصف قرن عن تغيّر المشهد الملاحيّ في عدّة مناسبات تزامن أغلبها مع تنامي النّزعة العدائيّة بين مجموع القوى ذات الريادة الملاحيّة، ما حال دون التّوصّل إلى صيغ ترضي الأطراف المتنازعة (Miege, 1990).

ويعود تاريخ ظهور مصطلح "جيوسياسة" أو الفكر "الجيوسياسيّ" إلى بداية القرن العشرين في ألمانيا عقب الحرب العالميّة الأولى سنة ١٩١٨ ومخلفاتها التي دفعت الأمتّة الألمانيّة إلى انتهاج الحوار بينها وبين مجالها نتيجة تداعيات معاهدة ١١ نوفمبر ١٩١٨ التي فرضها المنتصرون، والتي أجبرت الألمان على التّخلي عن المجالات التي احتلتها (Yves, 1993, P 351).

وأثارت معاهدة الخضوع التي أمضيت غصبا بين القوى الحليفة والنّازيّة حفيظة الألمان الذين خيروا الانسحاب والرّضوخ إلى سياسة الأمر الواقع والتّسليم بالهزيمة، وعملوا على ترميم صفوفهم وإيجاد المخرج لاستعادة أمجاد الماضي بعد أن سلبت أهمّ المجالات التي كانت تحت سيادتهم المباشرة، وخاصّة "الألزاس" و"اللورين" (Yves, 1993, P 351) اللّتان استعادتهما فرنسا عقب انتصارها في الحرب الأمر

الذي دفعها إلى إثارة الحوار الموسّع مع شعبها حول المجال في علاقة بالسياسة لتلافي الوقوع في الخطأ نفسه مجدداً.

وينبغي الخوض في مسألة المفاهيم والمصطلحات لتحديد مسار البحث بعد التداخل الذي بيّنته عدّة من دراسات في علاقة بالمجال بين "الجيوسياسة" و"الجيوستراتيجيا"، حيث ينسحب المفهوم والمعنى نفسه على المصطلحين استناداً إلى الظرفية الزمانية والمكانية التي يتنزّلان فيها. ووجب أمام الخط السائد في كلا المجالين الوقوف على الملامح والخصائص المميزة لكل مصطلح حتى يتسنى رفع اللبس الذي ظلّ ملازماً لأغلب الدراسات والتعريفات الواردة صلبها، الأمر الذي يقتضي جرداً متكاملًا لأغلب ما كتب في هذا السياق والمقارنة بينها لاستجلاء مكامن الخلل التي جعلت السواد الأعظم من المختصين يعتمدون المفهوم نفسه لتعريف كلا المصطلحين.

وتتنزّل "الجيوسياسة" كفكر يعنى بدراسة تأثير المجال براً كان أو بحرا على السياسة التي تستفيد بدورها من المميّزات الجغرافية لتحديد جوهر معناها، ليكون المفهوم استناداً إلى جدلية التأثير والتأثر القائمة بين العنصرين ذلك السلوك السياسي المؤثر في تغيير الأبعاد الجغرافية أو بالأحرى العلاقة السببية بين السلطة السياسية والمجال الجغرافي قصد فهم وتحليل وتصوّر السياسة مكانياً.

وأكدت البحوث التي عنيت بالمجال التطابق المفاهيمي (Brunet, 1993) بينهما، وهو ما أثبتته (قالوا) "Gallois" الذي يعتبر "الجيوسياسة" مفهوماً يجمع بين العلوم السياسية والجغرافيا، أي كلّ ما يعنى بدراسة العلاقات الموجودة بين السياسة والقوى على الصعيد الدولي وبين الجغرافيا التي تنتزّل فيها هذه الدراسات (Gallois, 1990)، وبالتالي فإنّ تفريقها عن الجغرافيا السياسية يعدّ أمراً بالغ التعقيد.

ويذكر "إيف لاکوست" أنّ الجغرافيا السياسية ما هي إلا مرحلة لتكوّن "الجيوسياسة" التي تتلخّص في كونها "صراع القوى على مجال محدد" (Yves, 1993)، وهو ما لا يختلف عمّا ذهب إليه "قالوا" الذي

يؤكد على التكامل بين الجغرافيا والسياسة، وبالتالي فإنّ التعريفين لا يختلفان في المضمون بقدر اختلافهما في التعريف الاصطلاحيّ ممّا يستوجب البحث عن مفهوم أكثر وضوحاً لا تشوبه الرّيبة. وخاض (ميشال فوشي) "Michel Foucher" في هذا الأمر وحاول استكمال المنقوص في تعريف "إيف لاقوست" بقوله "الجيوستراتيجية هي الطريقة العامّة للتّحليل الجغرافيّ للحالات السّوسيو - سياسيّة الملموسة والمحليّة وللمتمثّلات الاعتياديّة التي تصفها" (Foucher, 1991)، وهو التعريف نفسه المتعارف عليه والخاصّ بمصطلح "الجيوستراتيجية" الموجه إلى بعض الاختصاصات، وذلك حتّى سنوات السّبعين من القرن العشرين لينصهر إثر ذلك ضمن جملة المفاهيم المتداولة (Herve, 1999)، وهو تعريف أقرب إلى "الجيوستراتيجية" منه إلى "الجيوستراتيجية".

ولم تستطع أغلب التّحاليل والبحوث المختصة تقديم تعريف محايد "للجيوستراتيجية" بعيداً عن "الجيوستراتيجية" إذ ظلّت التعريفات المقدّمة تحوم حول المعنى ذاته، من ذلك الذي يعتبرها "طريقة الحركة السياسيّة في المجال" (Sanguin, 1992, P 44) كما هو الشّأن مع (قالوا) و(بول كلافال) "Paul Claval" اللذان يؤكّدان على النّقاط المشتركة بين "الجيوستراتيجية" و"الجيوستراتيجية" (Claval, 1994). وما يخلص إليه الدّارس لهذه المسائل هو استحالة الفصل بين المصطلحين ما دامت السّياسة والمجال العامل المشترك بينهما، لذلك يتوجّب تحديد عامل ثالث فاصل لا تتكرّر خاصيّاته مع المجالين في الآن نفسه. وعمد تمثّي الجغرافيا الجديد إلى ادماج السّياسة وإقضاء مصطلحات الجغرافيا السياسيّة أو "الجيوستراتيجية"، ما يدفع إلى الإقرار بأنّ الأبحاث "الإبستمولوجيّة Epistémologique" الطويلة والمعقّدة التي بحثت في "مبادئ العلوم وفروضها بغرض تحديد أصلها المنطقي وبيان قيمتها وحصيلتها الموضوعيّة" (شعبان، ١٩٩٣) ليست الطريقة الأنجع لتحديد خاصيّات هذه التّوجّهات، والأحرى التّفكير في المنهج المناسب الذي يعطي الأولويّة إلى المجال قصد القطع مع مثل هذه التناقضات.

وأوضح (ريمون آرون) "Raymond Aron" منذ بداية الستينيات أنّ تحديد خاصيّات المجال تنحصر في عناصر ثلاث هي "الوسط والمسرح والزّهان" (Aron, 1984). وجاء طرحه بهدف إيجاد نظريّة عامّة للعلاقات الدّوليّة، ما يعطينا توجّهًا جديدًا للفصل بين الجغرافيا والسّياسة و"الجيوستراتيجية" و"الجيوستراتيجيا"، غير أنّه وجب إعادة النّظر فيما قدّمه "ريمون آرون" من تعريف للمجال، فإذا اعتبرنا المجال إطارًا فهو بالتّالي رهان قبل أن يكون مسرحًا وعندئذٍ وجب تعديل نظريّته لتصبح خاصيّات المجال الثلاث هي "الإطار والزّهان والمسرح" (Rosière, 2001, P 35-38)، حيث أنّ اعتماد المجال كرهان يؤدّي معنى "الجيوستراتيجية".

وتجدر الملاحظة أنّ مفاهيم "الجيوستراتيجية" ليست مثار اهتمام المجالات الكبرى فحسب، بل تتسحب على جميع أنواع المجالات على اختلافها باعتبارها القدرة على التّخمين في المجال. ورغم بروز مصطلحات جديدة ترنو إلى إيجاد تحاليل وطرائق "جيوستراتيجية" لفهم مثل "الجهات المخروطيّة" التي انبعثت منها المدن أو "تطوّر البنى المّجاليّة" (Larot, 1997)، إلّا أنّ الخلط في المفهوم ظلّ قائمًا رغم النّظريّة التي قدّمها "إيف لاركوس" التي حاولت تقديم تعريف شبه قاطع لتجنّب التّدخل الذي وسم أغلب البحوث والدراسات المّجاليّة إذ يرى أنّه إذا أردنا الفصل بين "الجيوستراتيجية" و"الجيوستراتيجيا" يجب أن تكون الأولى مدنيّة - سياسيّة والثّانية عسكريّة بالأساس (Yves, 1993)، غير أنّ الأمر ظلّ سيان.

ولم يتمكّن الاختصاصيون العسكريّون رغم اعتماد مصطلحات خاصّة بهم مثل "مسرح العمليّات" لتميّز ميدان المواجهات العسكريّة من تجاوز الاختلاف والتّناقض اللّذان تراكما على مرّ السنين، الأمر الذي يجعل باب الحوار حول المفاهيم الاصطلاحية مفتوحًا رغم صعوبة المهمّة (Retaille, 1988, P 188).

وتعتبر "الجيوسياسة" إستنادا إلى مفهومها الواسع ورغم ما وسمها من تداخل في التعريف علما يركز أساسا على الظواهر الجغرافية خدمة لسياسة معينة يتبناها صانعو السياسة والقرار في أعلى هرم السلطة، وتعني أيضا التأثير الجغرافي على اليابسة أو التحليل المكاني للظاهرة السياسية (رياض، 1989)، وهي في النهاية رغم غموضها "سلطة المسؤولين السياسيين في تحديد البنية التحتية للأنشطة الإنسانية وتأثير المحيط "الفيزيو - أحيائي" و"السوسيو - ثقافي" على سلطة الفاعلين السياسيين" وقراراتهم (Doumenge, 1988, P 73).

المبحث الرابع: البحر الأبيض المتوسط في الدراسات المقارنة

يعدّ البحر الأبيض المتوسط من بين المجالات التي حظيت بوافر الاهتمام في أغلب البحوث والدراسات الأكاديمية، كما تعددت المناهج التي تناولته بالدراسة، ومنها المنهج المقارن الذي - وإن صنف حديثا مقارنة مع بقية المناهج الأخرى - يعتبر أحد الدعائم المكتملة للتاريخ لكونه يبحث في تفسير الظواهر الاجتماعية والثقافية والمعرفية والمجالية، ويخوض في مختلف العلوم الساندة للتاريخ كعلم الاجتماع وفقه اللغة والفلسفة وغيرها.

وظلّ التّيار الإسطوغرافي وخاصة الفرنسي والألماني وثيق الصّلة بالتمّوج الشرعيّ للكتابة الذي يقود مفهوم الأشياء والمصطلحات، ويسيرها منذ زمن طويل بعيدا عن الموضوعية في دراسة الظواهر على اختلافها. وما تعدّد المقاربات المقارنتية إلا نقطة تحوّل جذرية في مسار الكتابة التاريخية التي تفترض توافر محيط ثقافيّ مغلق حتّى تتمكّن من تجاوز الكتابات النوعية (Espagne, 1994, P 112) التي ظلّت جامئة على الأسلوب المعتمد في تناول القضايا المحورية، ما استوجب تحيينها والخوض في خفاياها ومناوشة ثناياها، وهو ما استطاعت "المقارنتية" تحقيقه ولو بنوع من الاحتشام أمام كتلة الرّفص التي حاولت وأدها في مهدها.

وأخذت "الإسطوغرافيا المقارنة" في البداية معنا غثا لاقتصارها في الغالب الأعمّ على مقارنات جوفاء لا ترقى إلى ما هو منشود، إلى جانب انحصارها في مجال ضيق لا يمكن بأيّ شكل من الأشكال من تحقيق أهداف المنهج المقارن لعدم توافر المعايير التي بإمكانها استجلاء نقاط التشابه والاختلاف الأمر الذي جعل نتائج الأبحاث الجزئية معزولة نوعا ما، لذلك وجب الرقيّ بها وتطويرها إلى مستوى الشمول ليصبح بالإمكان إقامة مقارنة بينها في مراحل لاحقة (Espagne, 1994, P 112)

ووجد تاريخين فاصلين حدّدا هموم المنهج المقارن وتطبيقه على سائر الظواهر الإنسانيّة والمجالية صلب الإسطوغرافيا الفرنسيّة التي تعمّقت في دراسته منذ أن انصبّ الاهتمام عليها مع رواد هذا التوجّه وخاصّة خلال الفترة التي تزعم فيها "فرنان بروديل" مدرسة الحوليّات (Braudel, 1969, P 54).

واعتمده منذ البدء "هنري بيير" في مجلّة "التّركيب التّاريخي" سنة ١٩٠٠ لمقاومة التّفكّت الذي صبغ الأعمال المنتجة من خلال توحيّ المقاربة "المونوغرافية Monographique"، وكذلك الوضعيّة (بروديل، د.ت، ص ٦٨). وخلفه عقب ذلك "فرانسوا سيميون" الذي تتلمذ على يد السوسيولوجيّ (دوركايم) "Durkheim" بعد ثلاث سنوات ليتقرّب إلى جمع المؤرّخين وخاصّة (شارل سينيوبوس) Charles Seignobos و(شارل فيكتور لونقلوا) "Charles – Victor Langlois" لدراسة التّاريخ المقارن عن كُتب (Doss, 1986, P 83).

ويعتبر المنهج المقارن عند علماء الاجتماع (Durkheim, 1895) الوسيلة الأنجع لبلوغ تفسير مقنع للتّاريخ كما في علم الاجتماع ولمسايرة مستوى العلوم الأخرى نفسه التي كانت سبّاقة في العمل بهذا المنهج كاللّسانيّات والأنثروبولوجيا، ويقول "فرانسوا سيميون" في هذا الصدد "وحدها المقارنة تجعل التّحديد والتّصنيف قابلا للتطبيق والذكاء ممكنا" (Simaind, 1897, P 146). ولا تخلو كتابات (ماكس فييار) "Max Weber" من اعتماد على المنهج المقارن في المقام الأوّل، وذلك رغم تعدّد مسارات دراساته

المعتمدة على البحوث التجريبية المبنية على الملاحظة والاختبار وليس على العلم والعقل " Les études Empiriques" وعلى مفاهيم "البيروقراطية" والعقلنة (Noiriel, 1998, P 142).

ودار الحوار الخاص بالتاريخ المقارن بشكل مقتضب إلى أن تناوله "مارك بلوك" بالدراسة نتيجة شغفه المبالغ بهذا المنهج الذي عبر عنه في رسالة وجهها إلى "هنري بيير" في غرة ماي سنة ١٩٢٤ بقوله "كلّ توجّهاتي الفكرية تتساق نحو التاريخ المقارن" (Bloch, 1992). ورفض "مارك بلوك" في مقال له بعنوان "لأجل تاريخ مقارن للمجتمعات الأوروبية" (Bloch, 1928, P 17) أواخر عشرينيات القرن العشرين المقارنات الغامضة للظواهر المنعزلة أو المتسعة في المجال والزمان، وبحث في المجتمعات المجاورة عن الأداة التي بإمكانها رفع اللبس عن المقارنتية نتيجة اللجوء في الغالب إلى مفاهيم واسعة خلاف ما يتطلبه المنهج المقارن أو البحث عن وسيلة لإظهار أوجه الشبه الخفية داخل المجتمع نفسه بعد غياب مصطلح مشترك.

ويستوجب الحديث عن المنهج المقارن وفق "مارك بلوك" توافر عاملين أساسيين، أولهما نوع من التماثل والتشابه بين الظواهر موضوع الدراسة، وثانيها نوع من التباين والاختلاف بين المجتمعات التي تنتجها (Bloch, 1928, P 18-19). ويقضي تطبيق هذا المنهج إما إقامة مقارنات بين مجتمعات متباعدة في الزمان والمكان حتى يصعب إيجاد أصول مشتركة أو تماثل بينها أو أي علاقة تأثير متبادل، أو عبر اعتماد المقارنة إستنادا إلى دراسة متوازية تحتم أن تكون المجتمعات محلّ متابعة وقريبة جغرافياً قصد إقصاء الأصول المشتركة ولو جزئياً (Bloch, 1928, P 17).

ويمكن هذا المنهج من تفسير الظواهر التاريخية وتأويلها في البداية ومن ثمّ الخروج بالنتائج والحكم عليها إستنادا إلى عاملي الزمان والمكان، إلا أنّ البعض يقرّ بقصور المنهج المقارن رغم ما أضافه للتاريخ باعتباره لا يزال يفتقر إلى منهجية واضحة.

وأفرزت الدعوة التي وجهها "بلوك" والقائمة على اعتماد المنهج المقارن تعدد الدراسات المعتمدة على التوجه ذاته، وتعمقت في بيان جدواه وتأثيره في التاريخ الاجتماعيّ تحديداً (Kott, Nadu, 1994, P 103-104) وأظهرت أنه بالإمكان اعتماد المقارنتية من خلال المنهج "الاستقرائيّ Inductive" الذي يشكل منطلقاً لتداعي الأفكار، أو عبر تطبيق نظيره الاستنتاجيّ - الاستنباطيّ Déductive" لدراسة النظريات السابقة، إلا أن ذلك خلف عديد الانتقادات من الرافضين لهذه المناهج بدعوى قصورها وعدم قدرتها على تقديم الإضافة رغم أنها تغطي المجالات الخاصة والعامّة على حدّ سواء، وتمكّن المؤرخ من إيجاد زوايا بحث جديدة (Kott, Nadu, P 105-107).

ويقول (مارسال ديتيان) "Marcel Détienne" تأكيداً على ما جاء على لسان "بلوك" أنّ المقارنات تأسس عبر الحوار الثنائيّ بين المؤرخ والأنثروبولوجيّ لأنّ التاريخ ليس بغريب عن المقارنتية أو أعمى عن التعددية (Denis, 2000, P 211)، كما تخوض المقارنة التاريخية إلى جانب القضايا الاجتماعية في المسائل الثقافية التي تعدّ هي الأخرى مدار حراكها باستمرار بحكم تعدد اللغات التي اعتمدها لتتبنى البصمة "المعجمية" وكلّ ما يعنى بوصف قواعد اللغة والصيغ والتأليف والتراكيب وما شابه ذلك (Platiel, 1998, P 47).

واتجهت عدّة من دراسات اعتمدت في تحاليلها على المنهج المقارن إلى تحديد مواضع التشابه والاختلاف بين البعض من المجالات المائية، وكان البحر الأبيض المتوسط ضمن دائرة هذا المنهج لبيان نقط التقاطع بينه وبين المحيط الأطلسيّ على سبيل الذكر لا الحصر قصد الوقوف على الخصائص المميزة لكلّ مجال، ناهيك أنّ أولى المقارنات خصت التسمية التي نعت بها المتوسط إذ أخذ صفة "البحر الأخضر" لتميزه عن الأطلسيّ (عامامو، 1999، ص 51-52).

ويتنزل الاهتمام الذي حظي به المتوسط مقارنة مع بقية البحار والمحيطات الأخرى بالنظر إلى الأهمية التي بات يكتسبها بعد التقطن إلى خصائصه الإستراتيجية بداية من النصف الثاني من القرن التاسع عشر عقب الافتتاح الرسمي لقناة السويس أمام الملاحة الدولية سنة ١٨٦٩، والتحول المفاجئ في المسارات البحرية المعتمدة في التجارة البحرية من المحيط الأطلسي إلى البحر الأبيض المتوسط (المحجوبي، ١٩٩٩)، الأمر الذي زاد في تعميق الخلاف بين مختلف القوى المتنازعة على تحيز المجال نتيجة تغير المشهد الملاحي التقليدي الذي أصبح الحوض المتوسطي نواة حراكه العسكري والتجاري مزيجا دور المحيط الأطلسي التقليدي (الغول، ٢٠٠٧، ص ٩).

وفند الانتقال الحاصل في وجهة المسالك التجارية الأطروحات التي كانت سائدة التي مفادها عجز البحارة المتوسطيين عن مقارعة ملاحي المحيط الأطلسي، إلى جانب افتقارهم إلى المقدرة الملاحية لتجاوز الحدود الضيقة والافتقار في معاملاتهم التجارية على السواحل والجزر المحاذية ما كان سببا في تأخرهم الملاحي لعقود طويلة (بروديل، ١٩٩٠).

النتائج

أمكنا من خلال ما تقدم أن نخرج بجملته من النتائج أهمها:

١. تواصل الغموض الذي طالما لفّ المجال المتوسطي حتى فترات متقدمة من الحقبة المعاصرة.
٢. عجز الدراسات النظرية التي خاضت في سيرورة الكتابة التاريخية في علاقة بالمجال، خاصة التي خلفها رواد الحوليات عن إعطاء مفهوم دقيق إلى المجال.
٣. أقرّ التيار الحولي ضرورة المحافظة على ما هو قائم مع إلزامية التطور تماشيا مع مقتضيات الظروف الزمانية والمكانية.

٤.مراوحة المصنّفات التّاريخيّة بدورها بين ثنائيّة الشّمول والتّخصيص في الحديث عن البحر الأبيض المتوسطّ، الأولى نلمسها في نظرة التّمكّك التي كانت لدى الرومان والإغريق، والثّانية تعود بالنّظر إلى المجتمعات العربيّة التي كانت محاذية في إقامتها سواحل المتوسطّ.

٥.سمتا التّشنتّ والتّشردم اللّتان وسمتا الدّراسات الجغرافيّة التي لم تستطع الفصل في جدليّة المفاهيم الاصطلاحية، وظلّ الخلط قائما بين "الجيوستراتيجيا" و"الجيوستراتيجيا" رغم التّفاسير والمقترحات التي قدّمت في هذا الإطار، واستحال رفع اللّبس الذي بات ملازما لكلا المصطلحين نتيجة الاقتصار على عنصري المجال والسياسة في تحديد المفهوم.

٦.تشكّل كتلة مناهضة للمنهج المقارن بتعلّة افتقاره لمنهجية واضحة تحدّد مساره رغم مساهمته في تفسير عدّة من ظواهر اجتماعية وثقافية ومجالية، والتي كان لها الأثر الإيجابي في الخروج من دائرة الجمود التي كانت السّمة المميّزة لغالبية ما دون صلب المصنّفات مهما اختلفت توجّهاتها.

التّوصيات

ارتأينا استنادا إلى النّتائج المتوصّل إليها طرح جملة من التّوصيات التي تتلخّص في الآتي ذكره:

١.ضرورة مراجعة مسألة التّوبونوميّة التي لّفها الغموض والبحث عن مفهوم موحد يقطع مع هذا

الحلّ العقيم.

٢.وجوب المحافظة على ما هو قائم دون القطع معه ومسايرة الواقع المعيش وتطوّراته حتّى يتسنى

الوقوف على حقيقة واقع المجال المتوسطّي.

٣. ضرورة التقيّد بمبدأ التّخصيص عند الحديث عن البحر الأبيض المتوسط، حيث أنّ لكلّ مجتمع بحريّ خصوصيّاته التي دفعته إلى إيجاد تسمية له تتماشى وواقعه.

البيلوغرافيا

I. المصادر والمراجع بالّلغة العربيّة

بروديل، فرنان. (١٩٩٢). "تكويني كمؤرخ". ضمن محمّد حبيدة. من أجل تاريخ إشكاليّ. ترجمات مختارة. القنيطرة. منشورات كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بالقنيطرة.

- بروديل، فرنان. (١٩٩٠). البحر المتوسط، نقله إلى العربية عمر بن سالم. أليف-منشورات البحر المتوسط. تونس.
- رياض، محمد. (١٩٨٩). الأصول العامة في الجغرافيا السياسية والجيوستراتيجية. بيروت-دار النهضة للطباعة والنشر.
- سليم محمد، السيد. (١٩٩١). العلاقات الدولية بين الدول الإسلامية. الرياض. مطابع جامعة سعود.
- شعبان، حسين. (١٩٩٣). برنشفيك وباشلار بين الفلسفة والعلم، دراسة نقدية. دار التنوير. بيروت-لبنان. الطبعة الأولى.
- عبد اللطيف، خالد. (١٩٩٦). مستقبل العلاقات بين دول شمال وجنوب المتوسط. مجلة السياسة الدولية. (العدد ١٢٣). مصر. مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية، ص ٢٥٠.
- عمامو، حياة. (١٩٩٩). البحر المتوسط والأسطورة من خلال الجغرافيين العرب. ندوة الإنسان والبحر. كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاس. ٧-٨-٩/١٩٩٩. مركز سرسينا للبحوث في الجزر المتوسطية-جمعية التاريخ والجغرافيا بصفاس. إشراف عبد الحميد الفهري. صفاس، ص ٥١-٥٢.
- غنيمي الشيخ، أحمد. (١٩٨٨). فلسفة التاريخ. دار الثقافة للنشر والتوزيع.
- الغول، يحي. (٢٠٠٧). جذور الحماية الفرنسية. تونس عبر التاريخ. الجزء الثالث. الحركة الوطنية ودولة الاستقلال. تأليف نخبة من الأساتذة الجامعيين. إشراف الأستاذ خليفة الشاطر. مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية. تونس، ص ٩.
- كاتب، أحمد. (٢٠٠٧). خلفيات الشراكة الأوروبية المتوسطية. رسالة ماجستير. جامعة الجزائر. كلية العلوم السياسية والإعلام.

المحجوبي، علي. (١٩٩٩). النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر: لماذا فشلت بمصر وتونس ونجحت باليابان. مركز النشر الجامعي. سراس للنشر. المطبعة الموحدة. تونس.

المراجع باللّغة الأجنبيّة

Amine, Samir. Yachir, Fayçal. (1988). *La Méditerranée dans le monde: les enjeux de la transnationalisation*. Editions la Découverte/Paris. Editions Toubkal/Casablanca. Université des Nations Unies/Tokyo.

Aron, Raymond. (1984). *Paix et guerre entre les nations*, Calmann-Lév.

- Barkan, Ömer Lütfi. (1954). La Méditerranée de Fernand Braudel vue d'Istanbul. In: *Annales. Economies, civilisations*. 9^{ème} année, (N°2), p 190.
- Barreau, Jean-Claude. Bijot, Guillaume. (2007). *Toute la géographie du monde*. Paris. Fayard.
- Bataillon, Marcel. (1950). La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II. In: *Revue économique*. Volume 1, (N°2), p 233.
- Bloch, M. (1939). Problèmes d'histoire comparée. In: *Annales d'histoire sociale*. 1^{ère} année. (N°4), pp 438-440.
- Bloch, M. (1992). *Ecrire la société féodale: Lettres à Henri Berr. 1924-43*. Paris. Institut Mémoire de l'édition contemporaine.
- Bloch, M. (1928). Pour une histoire comparée des sociétés européennes. In: *Revue de synthèse historique*. t.46, p 17.
- Braudel, F. (1969). Histoire et sciences sociales: La longue durée. In: *Ecrits sur l'Histoire*. Paris. Flammarion, p.54.
- Braudel, Fernand. (1998). *Les mémoires de la Méditerranée: Préhistoire et antiquité*. Editions établie par ROSELYNE DE AYALA et POULE BROUDEL. Edition de FOL Lois. Paris.
- Brunet, Roger. (1993). *Les mots de la géographie*, Reclus/Documentation française.
- Carre, François. (1977). La Méditerranée. In: *Méditerranée*. Deuxième série. Tome 31. (N°4), p.52.
- Charpentier, Béatrice. (1992). *La Méditerranée blessée: la mer malade de la terre*. Ouvrage publié avec le concours du ministère de l'environnement. Glémat.
- Chastagnaret, Gérard. Llibert, Robert. (1991). Quelle Méditerranée?. In: *Vingtième siècle. Revue d'histoire*, (N°32), pp 3-4.
- Chatelain, Abel. (1953). Fernand Braudel, leçon inaugurale au collège de France. In: *Revue de Géographie de Lyon*. Vol. 28, pp 152-153.
- Chevallier, Michel. (1832). *Système de la Méditerranée*. Paris.
- Claval, Paul. (1994). *Géopolitique et Géostratégie*. Nathan.
- Denis, Pelletier. (2000). Détienné Marcel, comparer l'incomparable. In: *Vingtième Siècle. Revue d'histoire*. Volume 67, (N°1), p 211.

Doss, François. (1985). L'histoire en miettes: des Annales militantes aux Annales triomphantes. In: *Espaces Temps*. 29. Cet obscur objet de l'histoire. 1. Une force trop tranquille, pp 47-48.

Doss, François. (1986). Les habits neufs du Président Braudel. In: *Espaces Temps*, pp 34-35,

Doumenge, Jean-Pierre. (1988). Les bases concrètes de la géopolitique du monde insulaire océanien. In: *journal de la société des océanistes*. (87), p 73.

Durkheim, E. (1895). *Les règles de la méthode sociologique*. Paris. PUF. Quadrige.

Espagne, Michel. (1994). Sur les limites du comparatisme en histoire culturelle. In: *Genèse*, (17). Les objets et les choses, p 112.

FEBVRE, L. (1953). Hommage à Henri Berr, de la revue de synthèse aux Annales. In: *Combats pour l'Histoire*. Paris. A. Colin, pp 340-341.

Foucher, Michel. (1991). *Fronts et frontières, un tour du monde géopolitique*. Fayard.

Gallois, Pierre. M. (1990). *Géopolitique. Les voies de la puissance*. FEDN. Plon.

Gottmann, Jean. (1949). Mer et terre. Esquisse de géographie politique. In: *Annales. Economies, sociétés, civilisations*. 4^{ème} année. (N°1), p 10.

Hanni, Habeeb. (2002). *Le partenariat Euro-méditerranéen*. Le point de vue arabe. Editions publisud.

Herve, Couteau-Bégarié. (1999). *Traité de stratégie*. Economica.

Kott, Sandrine. Nadu, Thierry. (1994). Pour une politique de l'histoire sociale comparative. La France et l'Allemagne contemporaines. In: *Genèses*. (17). Les objets et les choses, pp 103-104.

Larot, Pascal. Thural, François. (1997). *La géopolitique*. Montchrestiem.

Lepetit, Bernard. (1986). Espace et histoire. Hommage à Fernand Braudel. In: *Annales. Economies, civilisations*. 41^{ème} année. (N°6), p 1187.

Les Annales. (1979). 1929-1979. In: *Annales. Economies, Sociétés, Civilisations*. 34^{ème} année. (N°6), p 1344.

Manlau, Jean. (1964). *Les Etats Barbaresques*. Série Que suis-je? N°1097. Presses Universitaires de France. France. Paris.

Matvejeveitch, P. (2005). *La Méditerranée et l'Europe*. Paris.

Miege, Jean-Louis. (1990). *Navigations et migrations en Méditerranée de la préhistoire à nos jours*. Centre National de la Recherche Scientifique. Centre Régional de publication de

Marseille. Collioure française d'histoire maritime. Editions du Centre National de la Recherche Scientifique. France.

Noiriel, Gérard. (1998). Max Weber et le sens des limites. In: *Genèses*. (32), p 142.

Panzac, Daniel. (1999). La corsaire Barbaresques revisitée: XVI^{ème}-XIX^{ème} siècles. In : *la guerre de course en Méditerranée (1515-1830)*. Textes réunis par Michel Vergé-Franceschi et Antoine Marie Graziani. Press de l'Université de Paris-Sorbonne. Editions Alain Pazzola. Ajaccio.

Paul, Jean-Pierre. (2006). *L'homme et la mer: Représentations, symboles et mythes*. Economica-Anthropos. Paris.

Paxton, Robert. (1995). Les fascismes: essai d'histoire comparée. In: *Vingtième Siècle. Revue d'Histoire*. (N°45), p 8.

Péguy, Charles-Pierre. (1986). L'univers géographique de Fernand Braudel. In: *Espaces Temps*. 34-35. Braudel dans tous ses états. La vie quotidienne des sciences sociales sous l'empire de l'histoire, p 77.

Picon, Raphaël. (2002). La Méditerranée. L'un et le multiple. In: *Autres Temps. Cahiers d'éthique sociale et politique*. (N°73), pp 3-4.

Platiel, Suzy. (1998). Comparatisme historique et classifications». In: *Faits de Langues*. (N°11-12), p 47.

Reclus, Elisée. (1876). *La nouvelle géographie universelle: la terre et les hommes*. Vol. 1. chap.3. Paris. Hachette.

Retaille, Denis. (1988). La géopolitique dans l'histoire. In: *Espaces Temps*. 68-70. Histoire/géographie, (2). Les puissances du désordre, p 188.

Rieutard, Maurice. La Spierre, Loitribot. (S.D). *Le bassin méditerranéen enquête de sens*. Paris. Edition publisud.

Rosière, Stéphane. (2001). Géographie politique, géopolitique et géostratégie: distinctions opératoires. In: *L'information géographique*. Volume 65, (N°1), pp 35-38.

Ruel, Anne. (1991). L'invention de la Méditerranée. In: *Vingtième siècle, Revue d'histoire*. (N°32), pp 7-8.

Sanguin, André-Louis. (1992). Géographie politique, Géopolitique et Géostratégie: domaines, pratiques et friches. In: *stratégiques*, vol.55, (N°3), p 44.

Simaind, F. (1897). Méthode historique et science sociale. In: *Méthode historique et sciences sociales*. Paris. Editions des Archives contemporaines, p.146.

- Valery, Paul. (1951). *Regards sur le monde actuel*. Paris. Gallimard. (43^{ème} éd).
- Vernochet, Jean-Michel. Nigoul, Claude. Torrelli, Maurice. (1987). Menaces en Méditerranée. In: *politique étrangère*, 52^{ème} année, (N°3) , p 736.
- Verost, S. (1982). Peace treaties after World War I. In: *Encyclopedia of public international law*. Tome 4, p 10.
- Winrow, Gareth. M. (2000). *Dialogue with the Mediterranean the role of NATO'S Mediterranean initiative*. New York and London. Garland Publishing..
- Yves, Lacoste. (1993). Géopolitique de 1492. In: *Histoire, économie et société*. 12^{ème} année, (N°3), p 351.
- Yves, Lacoste. (1993). *Introduction au Dictionnaire de géopolitique*. Flammarion.
- Yves, Lacoste. (2006). *Géopolitique de la Méditerranée*. Paris. Armand Colin.